المبحث الثاني عشر

التصوير الفني في القرآن الكريم

المبحث الثاني عشر

التصوير الفني في القرآن الكريم

مفهوم الصورة لغة :

جاء في لسان العرب لابن منظور « الصورة في الشكل، والجمع صور، وقد صوره فتصور، وتصورت الشيء توهمت صورته، فتصور لي، والتصاوير: التماثيل.

قال " ابن الأثير ": الصورة ترد في لسان العرب (لغتهم) على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته، وعلى معنى صفته، يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة كذا وكذا أي صفته » (1)

و أما التصوُّر فهو « مرور الفكر بالصورة الطبيعية التي سبق أن شاهدها وانفعل بها ثم اختزنها في مخيلته مروره بها يتصفحها » (2)

وأما التصوير فهو إبراز الصورة إلى الخارج بشكل فني، فالتصوُّر إذا عقلي أما التصوير فهو شكلي « إن التصوُّر هو العلاقة بين الصورة والتصوير، و أداته الفكر فقط، وأما التصوير فأداته الفكر واللسان واللغة »(3)

و التصوير في القرآن الكريم، ليس تصويرا شكليا بل هو تصوير شامل « فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل، وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور » (4).

---

(1) لسان العرب : 492/2

(2) نظرية التصوير الفني عند سيد قطب صلاح عبد الفتاح الخالدي :– 74

(3) مجلة الرسالة – المجلد الثاني – السنة الثانية – العدد 64 –تاريخ 1934/09/24

(4) المصدر نفسه: 33.

مفهوم الصورة في الاصطلاح :

إنَّ الدارس للأدب العربي القديم لا يعثر على تعبير الصورة الشعرية في التراث الأدبي بالمفهوم المتداول الآن، وإنَّ كان شعرنا القديم لا يخلو من ضروب التصوير – كما أسلفت – لأن الدرس النقدي العربي كان يحصر التصوير في مجالات البلاغة المختلفة كالمجاز و التشبيه و الاستعارة،أما الصورة الشعرية - كمصطلح نقدي- الذي يُعنى بجماليات النصّ الأدبي قد دخل النقد العربي في العصر الحديث تأثرا بالدراسات الأدبية الغربية، ومسايرة لحركة التأثير والتأثر التي عرفتها الآداب العالمية فالأدب العربي وهو يتطور في حركية دائبة نحو الكمال، أخذ بقدر ما أعطى، وهذا ليس عيبا بقدر ما هو سعيٌ نحو المعاصرة ومحافظة على الأصالة و التميز،لقد ركزت أكثر التعريفات النقدية للصورة على وظيفتها ومجال عملها في الأدب، ويلاحظ الأستاذ " الدكتور أحمد علي دهمان أن مفهوم الصورة الشعرية ليس من المفاهيم البسيطة السريعة التحديد، وإنما هناك عدد من العوامل التي تدخل في تحديد طبيعتها: كالتجربة والشعور والفكر والمجاز والإدراك والتشابه والدقة... فهي من القضايا النقدية الصعبة، ولأن دراستها (الصورة) لا بد أن تُوقِع الدارس في مزالق العناية بالشكل أو بدور الخيال أو بدور موسيقى الشعر كما هو في المدارس الأدبية [1] فالصورة عند " أحمد علي دهمان " مركبة و معقدة و تستعصي على الدارس. وللوقوف على مفهوم الصورة الشعرية وأهم عناصرها التركيبية، بودي أن أتتبع تعريفاتها عند القدماء مرورا بالمحدثين الغربيين ثم المحدثين العرب. لقد ظهر الاهتمام بالصورة في الدرس الأدبي عموما، و الشعر خصوصا، منذ حركة الترجمة التي عرفها الفكر العربي عن الفلسفة اليونانية، ومدى الاحتكاك الحادث بين الحضارتين الغربية والعربية.

« فإذا كان الاهتمام بالصورة أصيلا بالنظر إلى الإبداع الأدبي وتحليله، فقد رأينا أن الاصطلاح قديم كذلك، يتردد في المصنفات النقدية، وإنْ برُؤَى تتقارب حينا، وتتباعد حينا آخر، فهو ليس جديدا ولا يخفى أن التذوق الجمالي منذ أن كان

(1) يُنْظَرْ:الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجا و تطبيقاً: 269- 270.

الشعر في المجتمعات القديمة كان مصدره الصورة التي تساعد على اكتمال الخصائص الفنية في الفن و الأعمال الأدبية[1]

إذن لابد أن نتوسع في معنى التصوير، حتى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن. فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالإيقاع وكثيراً ما يشترك الوصف، والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات وموسيقى السياق، في إبراز صورة من الصور، تتملاها العين والأذن والحس والخيال والفكر والوجدان.

وهو تصوير حي منتزع من عالم الأحياء، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة. تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات، بالمشاعر والوجدانيات فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حيّة، أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة، فالعيش في رحاب هذا التصوير الفني للقرآن الكريم هو الحياة، وليس مجرد حكاية الحياة.

خصائص التصوير الفني:

1- المعاني الذهنية التي تخرج في صورة حسية:- (حالة ذهنية حسية)

وذلك في بيان أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله –عز وجل- ولن يدخلوا الجنة إطلاقاً، وأن القبول أو الدخول أمر مستحيل. هذه هي الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعاني المجردة. ولكن أسلوب التصوير يعرضها في الصورة الآتية:-

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[2].

ويدعك ترسم بخيالك صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ في سم الخياط؛ ويختار من أسماء الحبل الغليظ اسم (الجمل) خاصة في هذا المقام؛ ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثر، ليستقر في النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة، في أعماق النفس، وقد وردا إليها من

(1) يُنْظَرْ:جماليات الأسلوب :15.
(2) سورة الأعراف: من الآية40.

طريق العين والحس –تخيلاً- وعبر إليها من منافذ شتى، في تؤدة لا من منفذ الذهن وحده، في سرعة الذهن التجريدية.

ويريد أن يبين في موضع آخر أن الله سيضيع أعمال الذين كفروا كأن لم تكن قبل شيئاً، وستضيع إلى غير عودة فلا يملكون لها ردَّاً، فيقدم هذا المعنى مصوراً في قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [1] ويدعك تتخيل صورة الهباء المنثور، فتعطيك معنى أوضح وآكد للضياع الحاسم المؤكد.

أو يرسم صورة مطوّلة بعض الشيء لهذا المعنى نفسه[2] في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [3].

2- المعاني المجردة في تصوير الحالات النفسية والمعنوية:- (حالة نفسية معنوية)

فعندما يريد أن يكشف عن حال أولئك الذين يهيئ الله لهم المعرفة فيفرون منها كأن لم تهيأ لهم أبداً؛ ثم يعيشون بعد ذلك هابطين تطاردهم أنفسهم وأهواؤهم، بما عملوا وبما جهلوا؛ فلا هم استراحوا بالغفلة، ولا هم استراحوا بالمعرفة، فيرسم لهم هذه الهيئة:- ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [4].

وفي الصورة تحقير وتقذير – يحقق الغرض الديني- ولكنها من الوجهة الفنية صورة شاخصة، فيها الحركة الدائبة. وهي صورة معهودة فهي في تثبيت المعنى

(1) سورة الاية الفرقان:23
(2) يُنْظَرْ: التصوير الفني في القران :36.
(3) سورة إبراهيم من الآية 18.
(4) سورة الأعراف:175-176.

المراد بها أشدّ وأقوى. وهكذا يلتقي الغرض الديني بالغرض الفني، كالشأن في جميع الصور التي يرسمها القرآن الكريم.

ويريد أن يوضح حالة تزعزع العقيدة، حيث لا يستقر الإنسان على يقين، ولا يحتمل ما يصادفه من الشدائد بقلب راسخ، ولا يجعل عقيدته في معزل عن ملابسات حياته، بعيدة عن ميزان الربح والخسارة. فيرسم لهذا التزعزع صورة تهتز وتترنح وتوشك على الانهيار في قوله تعالى:- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [1] وكذلك الذي لم يقم بنيانه على غير التقوى ﴿ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ ﴾ [2] (فهنا قد أكمل الحركة الأخيرة التي كانت متوقعة دون أن يذكر ولو كلمة (ثم) في موضع (الفاء) (فانهار) لأن هذا المدى الطويل، قصير، حتى لا ضرورة لهذا (التراضي). والآن نأخذ في ضرب الأمثلة على التصوير المشخص، لمشاهد الحوادث الواقعة والأمثال المضروبة، والقصص المروية، فالطريقة فيها واحدة، والشبه بينها قريب:[3]

ها هو ذا يتحدث عن (الهزيمة) فيرسم لها مشهداً كاملاً تبرز فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المضمرة، وتلتقي فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية، وكأنما الحادث معروض من جديد، دون أن يُغفل منه قليل أو كثير إذ يقول (جلّ وعلا) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١ ﴾ [4] فهي حركة نفسية أو حسية من حركات الهزيمة وسمة ظاهرة أو مضمرة من سمات

(1) سورة الحج: من الآية11.
(2) سورة التوبة: من الآية109.
(3) يُنْظَرْ: التصوير الفني في القران:41-42.
(4) سورة الأحزاب الاية:9-11.

الموقف، لم يبرزها هذا الشريط الدقيق المتحرك، المساوق في حركته لحركة الموقف كله؟

فكل حركة وسمة هي مسجلة ظاهرة، كأنها شاخصة حاضرة، أما الصورة النفسية فخالدة تتكرر في كل زمان، حيثما التقى جمعان وتعرض أحدهما للخذلان.

ثم نأخذ في عرض نماذج من الأمثال القصصية التي تضرب في القرآن:-

لنعرض مشهداً من قصة إبراهيم، وهو يبني الكعبة مع ابنه إسماعيل وكأنما نحن نشهدهما يبنيان ويدعوان الآن، لا قبل اليوم بأجيال وأزمان: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (1)

لقد انتهى الدعاء، وانتهى المشهد، وسدل الستار، هنا الحركة عجيبة في الانتقال من الخبر إلى الدعاء، هي التي أحيت المشهد وردته حاضراً. فالخبر (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ) كان كأنما هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد: البيت، وإبراهيم وإسماعيل، يدعوان هذا الدعاء الطويل.

وكم في الانتقال من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فني بارز يزيد وضوحاً وذلك هو سرّ الإعجاز.

ثم لننتقل إلى مشاهد القيامة والى صور النعيم والعذاب، فقد كان لها من التصوير الفني نصيب، فنحن أمام مشهد من الإسراع والخشوع، أشد في النفس هولاً واكمد في التصوير لوناً ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ (2)

أربع صور متتابعة متواكبة، أو أربع مشاهد لموقف واحد، يتلو بعضها بعضاً في الاستعراض. وهي صورة فريدة للفزع والخجل والرهبة والاستسلام، يجللها ظل كئيب ساهم يكمد الأنفاس. وهي صورة ترسم كذلك في وسط حي: هؤلاء آدميون،

(1) سورة البقرة الايات:127-128.
(2) سورة إبراهيم الايات :42-43.

بينهم وبين المستمعين صلة الجنس المشترك، والحس المتشابه فهي ترتسم في نفوسهم حية، ويصل الشعور بها من هؤلاء إلى هؤلاء بالمشاركة الوجدانية وبالتخيل المحسوس، فإذا قرأها القارئ تمشت رعدة الهول في حناياه، كأنما يلقاه!.

وكذلك في قوله تعالى موقف آخر من مواقف البعث مؤلف من مشاهد عدة، بين كل منها والآخر فجوة يملؤها الخيال: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [1] فهذه هي الصيحة الأولى أخذتهم وهم يتجادلون ويتخاصمون، فلم يستطيعوا حتى التوصية، لأنها عجلت بهم إلى القبور.. ثم: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [2] ثم يفركون عيونهم فيتحققون ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [3] وقد حضروا فعلاً، وارتسم المشهد، وها هم أولاء يتلقون الخطاب على مرأى ومسمع ممن يقرأون الآن هذا الكتاب! ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [4]

ونحسب أننا أمام مشهدين بارزين متناسق الخطوات، متقابل الجزيئات لا يحتاج منا إلى توضيح أو بيان. فلنتابع خطوات الفريقين إلى ما خلف الجدران ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [5].

(1) سورة يّس الايات:49-50
(2) سورة يّس الايات:51-52
(3) سورة يّس الايات:53-54.
(4) سورة يّس الاية:54.
(5) سورة الدخان الايات:43-50.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [1].

وننتقل إلى مشهد آخر من مشاهد الأسلوب التصويري، وهو مشهد من مشاهد الطبيعة الصامتة الخالدة يلفت النظر إليه دليلاً على قدرة الله ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ [2].

هذه لوحة طبيعية منسقة يوجه إليها البصر، لينقل البصر ما يراه إلى النفس، ليقع في النفس ما يقع من الأثر. لتؤمن بقدرة الله (ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا) وهي لوحة معروضة في كل حين. ولكنك تقرأ هذه الآيات، فالتفت إليها كأنما تعرض أول مرة في هذا الوجود وتلك طريقة القرآن في كل ما يوجه إليه النظر من مشاهد الطبيعة ومشاهد الحياة في جميع المناسبات.

وفي منظر الظل الذي تلقيه الأجرام فيبدو ساكناً، وهو يتحرك ببطء لطيف: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [3] وفي هذا المشهد جمال طبيعي يغري الخيال بالجولان، ويملي للخواطر في الهيمان. وكم في المشاهد المألوفة المكرورة ما يبدو جديداً، كأنما تتملاه العين أول مرة، حين تتجه إليه بالحس الشاعر المتفتح، والعين المتيقظة للألوان. لأن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن الكريم.

وننتقل إلى لون آخر من ألوان التصوير وهو التخييل الحسي والتجسيم إن (التخييل الحسي) هو حركة حية مما تنبض به الحياة الظاهرة للعيان، أو الحياة

(1) سورة الدخان الايات:51-56.
(2) سورة الملك الايات:3-4.
(3) سورة الفرقان الايات:45-46.

المضمرة في الوجدان. وهي التي يسير عليها التصوير في القرآن لبث الحياة في شتى الصورة مع اختلاف الألوان.

أما (التجسيم): تجسيم المعنويات المجردة، وإبرازها أجساماً أو محسوسات على العموم، وإنه ليصل في هذا إلى مدى بعيد، حتى ليعبر به في مواضع حساسة، وهي الأسلوب المفضل في تصوير القرآن.

والآن نأخذ في ضرب الأمثال:

1) لون من ألوان (التخييل) يمكن أن نسميه (التشخيص) يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة، والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية.

هذا هو الصبح يتنفس: ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [1] فيخيّل إليك هذه الحياة الوديعة الهادئة التي تنفرج عنها ثناياه، وهو يتنفس فتتنفس معه الحياة، ويدب النشاط في الأحياء، على وجه الأرض والسماء.

وهذا هو الليل يسرع في طلب النهار، فلا يستطيع له دركاً ﴿ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا ﴾ [2] ويدور الخيال مع هذه الدورة الدائبة، التي لا نهاية لها ولا ابتداء.

أو هذا هو الليل يسري: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ **(الفجر:4)** فتحس سريانه في هذا الكون العريض، وتأنس بهذا الساري على هينة واتئاد.

وهذا الظل الذي يلجأ إليه المجرمون ﴿ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤ ﴾ [3] ففي نفسه كزازة وضيق، لا يحسن استقبالهم، ولا يهش لهم هشاشة الكريم، فهو ليس فقط (لا بارد) ولكن كذلك (ولا كريم)! وكثيراً ما يجتمع التخييل والتجسيم في المثال الواحد من القرآن، فيصور المعنوي المجرد جسماً محسوساً، ويُخَيَّل حركة لهذا الجسم أو حوله من إشعاع التعبير من ذلك قوله تعالى: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ

(1) سورة التكوير الاية:18.
(2) سورة الأعراف: من الآية54
(3) سورة الواقعة الايات :43-44.

﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1] فكأنما الحق قذيفة خاطفة تصيب الباطل فتزهقه. وكأنما الرعب قذيفة سريعة تنفذ في القلوب لغورها.

إذن التصوير: هو السمة البارزة في عرض مشاهد الكون، ومشاهد الآخرة تحقيقاً للجوانب الفكرية التي قصد إليها القرآن الكريم.[2]

وقد تميزت الصورة الأدبية للمشاهد بما تثيره من المشاعر المختلفة والعواطف المتباينة.. مما دفع الباحثين على تعاقب الأجيال إلى تلمس روعتها لما لها من آثار نفسية رائعة.

ويأتي التصوير المعتمد على الحقيقة؛ حيث يأتي مرافقاً مع سياق الفكرة ليجلو التعبير عنها، كما أن أسلوب الحوار يتدخل وأسلوب الوصف في كثير من المواضع فيكون جزءاً متمماً لوصف المشاهد. ومن ذلك الحوار التصويري قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾[3].

ويأتي التصوير المعتمد على التشبيه والتمثيل، حيث حفل القرآن الكريم بهذه التشبيهات الرائعة المصورة للمعاني أدق تصوير وأبلغه وأروعه. وجاء ذلك المعنى في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[4] أعمق تصوير للحياة الدنيا نراها زاهرة تملأ الصدور فرحاً، والنفوس سروراً، والقلوب آمالاً، إذا هي مظلمة داكنة. فمباهجها أحلام وسراب، كالنبات يهيجه الغيث فتصبح الأرض مخضرة نضرة،

(1) سورة الأنبياء من الآية18.
(2) يُنْظَرْ :إعجاز القران البياني ودلائل مصدره الرباني :342.
(3) سورة صّ الايات:59-64 .
(4) سورة الكهف الاية:45.

شذية عطرة حتى إذا استغلظ واستوى وبلغ المدى، أصبح هشيماً تذره الرياح كأن لم يكن بالأمس وهكذا الحياة وزينتها.

ويأتي التصوير المعتمد على الاستعارة؛ والاستعارة هي لون من ألوان التصوير المعجز، وهي إحدى السبل التي تكشف عن معانيه وبيان مضمونه ومحتواه. ومن أروع الاستعارات القرآنية فيما يبدو تلك التي اختصت بالمشاهد الكونية ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [1] استعار الظلمات للكفر، والنور للإيمان، والمعنى المشترك بين الظلام والكفر هو الضلال وبين النور الإيمان هو الهداية، الظلمات أشمل من الجهل فهي الكفر والغي والضلال يتعثر الخابط في ظلامها، ويضل القاصد. وفي جميع الظلمات إشارة إلى أن طرق الكفر متشعبة وكثيرة، وأفرد النور، لأن طريق الإيمان واحد مستقيم يهدي الحائر.

الحياة الشاخصة في التصوير القرآني:

الصور القرآنية المتخيلة معروضة بطريقة حية مؤثرة، ويكاد القارئ المتخيل يراها وهي تتحرك كالإحياء.ومن الأمثلة على قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [2].

الحديث في الآيتين عن أهوال يوم القيامة، وهي أهوال عظيمة شديدة مخيفة، وليست معروضة عرضاً جامداً، وإنما هي معروضة عرضا مصوراً شاخصاً، وقارئ الآيتين يرى بخياله مشاهد ولقطات لزلزلة الساعة وهوله ورعبها وفزعها.والهول والفزع والتصوير في إن الحامل تضع حملها وتسقطه من شدّة هذا

(1) سورة البقرة: من الآية257.
(2) سورة الحج الاية:٢ .

اليوم، وقال (مرضعةٍ) ولم يقل مرضع لأنها في حال إرضاع مستمرة، ومن شدة الهول تلقي بفلذة كبدها.فما أعظم هذا التصوير وما أروعه.[1]

والحركة المتجددة في التصوير القرآني: مثال ذلك: قال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾[2].

التناسق الفني في التصوير الفني: ويبدو ذلك في المظاهر الآتية:

أ-استقلال اللفظ برسم الصورة: قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[3].

ب- التقابل بين صورتين حاضرتين: قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[4] في الآية صورتان متقابلتان حاضرتان:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[5] حيث يتخيل للقارئ صورة للدواب مبثوثة في السماوات والأرض.

---

(1) يُنْظَرْ:إعجاز القران البياني ودلائل مصدره الرباني:344.
(2) سورة الأحزاب الآيات ٨ – ١٤.
(3) سورة التوبة الآية ٣٨.
(4) سورة الشورى الآية ٢٩ .
(5) سورة الشورى الاية :29.

الثانيـة: فـي قولـه تعـالى: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ حيث يتخيل القارئ صورة للدواب المبثوثة المتفرقة في السماوات والأرض وهي تجمع بكلمة واحدة لقد قابلت الآية بين مشهد البث ومشهد الجمع في لحظة على طريقة القران المصورة،ويشهد خيال القارئ هذين المشهدين العظيمين،قبل أن ينتهي لسانه من تلاوة الآية.[1]

ت-التقابل بين صورة ماضية وأخرى حاضرة: قال تعالى: ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[2].

ث-تناسق الإيقاع مع السياق: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾[3] والتناسق هنا في حذف الياء لتحقيق التناسق في الإيقاع الجذاب المتناسق مع السياق ومع الفواصل في الآيات.

ج-التناسق في رسم الصورة: الصورة القرآنية مرسومة بتناسق جذاب، وقد توفر لها أدق مظاهر التناسق الفني،ويكون التناسق في وحدة الرسم، والتناسق في الألوان، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾[4] جمعت الصورة المعروضة هنا بين السماء والأرض والجبال والجمال، وهي أربع مظاهر للضخامة في هذه المخلوقات، وأجزاء الصورة موزعة بتناسق فني في:

أ- في الاتجاه الأفقي لقطتان: السماء مرفوعة، والأرض مبسوطة.

ب- في الاتجاه الراسي لقطتان: الجبال لمنصوبة، والجبال صاعدة السنام.

---

(1) يُنْظَرْ :إعجاز القران البياني ودلائل مصدره الرباني :349.
(2) سورة الواقعة الآيات ٤٠ – ٤٥.
(3) سورة القمر الآيات ٦ – ٨.
(4) سورة الغاشية الآيات ١٧ – ٢٠.

ويكون التناسق في رسم إطار الصورة: قال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [1] إن هذا الإطار مكون من جزأين: الضحى الرائق، والليل الساجي وهما أصفى أنين من آونة الليل والنهار، واشف أنين تسري فيهما التأملات[2].

ولن نستطيع أن نفيض في الأمثلة والنماذج، ولو أردنا أن نستقصي الكلام في تصوير القرآن ومقوماته ومظاهره، لجفّ المداد ونفذ الورق دون أن نوفي الكلام حقه ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [3].

فان كنت قد ألقيت السمع إلى ما قلنا وأنت شهيد بعقلك الصافي المتحرر وقفت على الحق في كل الذي ذكرناه، وأيقنت أن هذه المعجزة التي تصورت كلاماً يتلى ليست مما يصوغه بشر، ولا ينبغي أن تكون مادة كَذِب كَذَبَ بها محمد (ﷺ) على الله عزّ وجلّ، بعد أن عاش أربعين عاماً صادقاً بين الناس (الصادق الأمين).

أما إن كنت تتسمع إلى ما أقول بأُذن يجثم من ورائها عناد متحكم أو غيظ متغلب، أو هوى لا قبل لك به، فليس للمنطق أيّ حيلة مع مثل هذه الأذن وإن بدت أنها صاغية.

ولقد جسد الله – عز وجل- هذا الغيظ والغرض والهوى في صورة محسوسة منظورة إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ

(1) سورة الضحى الآيات ١ –٢.
(2) يُنْظَرْ :التصوير الفني في القرآن :103.
(3) سورة الكهف الاية:109.
(4) سورة الحجر الايات:14-15.